العمارة فى الاندلس

تربط سلسلة التاريخ حلقات غريبة ، ومدنية الأندلس من أغرب هذه الحلقات وأقواها ، وما زالت تحيط بهذه المدنية قصص وأساطير ، يتناقلها الناس من قرون عدة ، ولم تأت البحوث التاريخية الحديثة بما يحط من شأن هذه الأساطير ، أو يخفف من زهاء تلك المدنية . ويكاد المرء يتصور خيالا ما كانت عليه هذه البلاد من العظمة والسمو ، أو يحسب مغالاة ما لا حصر لعدده ممن أظلتهم من رجال بارزين ، فى العلم والأدب والدين والفن والفلسفة والسياسة ، وفى كل نواحى الحياة والتفكير . ومع ذلك فآثارهم وفنونهم أصدق دليل على حقيقة هذا الخيال .

ازدهرت الفنون فى الأندلس بتولى عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير فى تاريخ تلك البلاد بل فى التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، أنها كانت أم المدائن وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ومعدن العلماء ، وأنها كانت آهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسيحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المبانى والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين . وأن بها جامعاً ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة .

ولم يخطئ المؤرخون أو يغالوا ؛ فما زال مسجد قرطبة أفخم المساجد وأعظمها . أقامه عبد الرحمن بن معاوية سنة ٧٨٦ ميلادية ، على أنقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى ، فى عصر عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية فى عصر الحكم المستنصر بالله سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة بعد ذلك بست وعشرين سنة على عهد المنصور ، ولى الخليفة هشام بن الحكم . وقد تضاعفت مساحة المسجد ما يقرب من ثلاث مرات فى هاتين المئتين من السنين .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب فعرضه يقرب من ثمانية أمتار . ويحف بالأروقة من كل جانب صف من الأعمدة ، رصّ عليه منها اثنان وثلاثون . فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين أسكوبا حتى يصل إلى المحراب . وعرض كل أسكوب يقرب من ثلاثة أمتار . وجدار القبلة فى المسجد يمتد على مائة وثلاثين متراً . أما أسواره الجانبية فطول كل منها مائة وثمانون ، أى أنه مستطيل يزيد طول مجموع أضلاعه عن ستمائة متر .

وبالمسجد تسعة عشر باباً ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، والباقى إلى البهو .

أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده لأكثر من خمس وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد لما يقرب من نُصف هذا العدد . وتمتد فى بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السُّقُف وتُظل من تحتها مساحة أربعة أفدنة ، هى مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل إليه أى مسجد آخر من مساجد الإسلام ، فإن العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، ويدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة جميع أطرافه ، ويخيل إليه أنه يتجول فى غابة واسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة ، فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد المغرب الأقصى ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسى فى شىء . ولكن إبداع هذا الفن ، يتجلى أولا فى تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجلال ، ويتجلى ثانياً فى ابتكار موفق توصل إليه بَنَّاء المسجد الأول ، فى عصر عبد الرحمن الداخل . ذلك أن الأعمدة التى استعان بها هذا الأمير فى إقامة المسجد قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمدّ على هذه سقف المسجد ، وإن امتدت السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء

ولاالهواء إلى بيت الصلاة ؛ إذ أنه يخلو من النوافذ ولا يصل إليه الضوء إلامن البهو ، وجدار القبلة كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً . وقد هدى البحث بنّاء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة دعائم فيتضاعف ارتفاعها، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة . وأقام بين رؤوس الأعمدة صفّاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم . وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى أرجاء بيت الصلاة حتى بعد امتداد هذا البيت وابتعاد المحراب عن البهو الذى هو منبع الضوء لهذا البيت بما يزيد عن مائة من الأمتار . والفضل فى هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة . وهذه الفكرة التى اتبعها البناة فى مسجدقرطبة عند زيادته فى العصور التالية لم يكن لها نظير فى أى بناء سابق .

ولهذا البنّاء المبتكر شأن كبير فى العمارة الاسلامية ؛ فهو لم يكتف بهذا الابتكار بل أضاف إليه ابتكاراً آخراً . ذلك أن الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه فى البناء فاحتال على ذلك باستخدام الآجُرّ ، ولكنه استعان به على وجه جعل عقود مسجد قرطبة فريدة فى التاريخ ، تتناوب فيها ثمانى قطع من الحجارة البيضاء مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر . وكان لهذا مظهر زخرفى جميل ، انتشر فى العمارة الإسلامية ، وأخذه عنها البناة فى أوربا فى العصور الوسطى . وهذ المظهر الزخرفى الذى يبدو فى غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب فى الألوان ، لم يكن له نظير فى أى بناء سابق . وبالرغم من بساطة الفكرة ففضل ابتكارها يرجع إلى بنّاء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى ، فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهى الشبيهة بحدية الفرس ، وهى عقود ابتكرها الفن الإسلامى فى عناصر العمارة ، وعم استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة فى هذه البلاد .

ونجد من العقود فى مسجد قرطبة أشكالا أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء . فقد تجزأ العقد إلى ثلاث فتحات أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من الأزهار ترتسم فى الفضاء . وهذا عنصر آخر من العمارة والزخارف يرجع الفضل إلى الفن الأندلسى فى تنسيقه ونشره . وكان هذا العنصر محبباً إلى رجال الفن ، وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه فى مكان الشرف من

مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب وحول عقود قبته . وإننا قلما نلقى فى العمارة الإسلامية عنصراً أجمل شكلا منه أو أنقى حدوداً . ولا شك فى أن الفكرة الأولى فى ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار . فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاثة أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر . ولكن الهندسة تركت المجال للخيال ، فكأن هذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوى فى ارتقائها إلى القباب ، أو كأنها فى الفضاء أهلة تعكس الضوء وتضىء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها من ناحية اخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجتمع بأشكالها كلها ، بمثل الابداع الذى اجتمعت به ، فى المقصورة المجاورة لمحراب قرطبة ، والتى تنسب اليوم إلى القديس فرناندو . فى هذه المقصورة ارتقت العمد الواحد فوق الآخر ، كما ارتقت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر أين تبتدئ وأين تنتهى .

ونرى فى الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدية الفرس وأخرى على شكل ورقة الزهرة المقصوصة إلى ثلاث وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعا من العقود المسننة ، قص كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة . ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لايكاد يصدقه العقل ، إلا أن هذا الخليفة ترك فى مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف فى تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً وأجمل مظهراً من قبة المحراب التى أقامها هذا الخليفة . وهى على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين «مؤللة ، مهللة كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان » . وإبداع هذه القبة يعجز البيان عن وصفه . فلم يترك البنّاء ولم يترك الفنان ركناً فيها أو سطحاً إلا كسواه حلية ثمينة ، أو أضافا إليه عنصراً يزيده جمالا . إن دلت هذه القبة على شىء فهى تدل على سعة الخيال الفنى عن البنّاء المسلم . لقد استطاع أن يجعل من القباب ، وهى عنصر معمارى شاق التنفيذ ثقيل التكوين ، استطاع أن يجعل منها تاجا محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة فى هذه القبة هيكلا جعل مابين ضلوعه حشواً أو غلافا رقيقاً . هذا الخيال الفنى يرى الجمال فى كل شىء ، ويرى

الجمال فى الخفة والحركة ، حتى فى أشد العناصر تطلباً للثبات ، وفى أقربها للجمود ، ينصب الخيال عليها فيجزئها ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها ، ويفرض على هذا كله فكرته فى الطبيعة فكرة اللانهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين إنه : «قد قوس أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ؛ حتى كأنه بالمجرّة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ؛ فقد قيل إن الحكم طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه بفسيفساء يحلى بها المسجد ، فأرسل إليه الإمبراطور ما أراد ، وأرسل مع قطع الزجاج المذهبة ، عاملا عليها بسر تنسيقها ، وأن هذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس ، فما لبثا أن تفوقا عليه فى صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلى الأندلس مهارتهما فى تعلم هذا الفن الجديد . أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذى أحكم إطار المحراب ، وأبدع تنسيقه ، وحلاه بالرسم ، وجمله بالكتابة ، أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أو يتعلم رصها بمهارة ، وهو هذا العامل الأندلسى الذى أعد لجدار المحراب لوحات من الرخام ، منحوتة برقة فائقة ودقة ظاهرة ، تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، فكأنها غلالة بديعة التطريز ، تتدلى على جدار المحراب .

ولن يملّ المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفى كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحيي أمامه ذكرى الجلال والعظمة . والخارج إلى صحن المسجد ، تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التى أحاطت بتجواله فى الداخل ، ويرى فى رسم العقود وجمال نسبها ، ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد ، دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهى تكسو الجدران بثياب ثمينة . وكأن نقوشها توقيعات تحث السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى ، من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ، ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر أمام

إحدى البوابات التى ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله امتلاء المسطحات ، على بوابة أخرى ، فلا يقع نظره إلا على لون زاه ، أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو إطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع فى مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها ، فى حركة دائمة ، وتنوع مستمر ، يطرد الملل ، ويثير الإعجاب .

وثمار هذا الإعجاب باق على مضى السنين . فمسجد قرطبة ، فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها . وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة لقول الشاعر :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد . أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوربا طابع الإسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الإسلامية ، لا يشوب وحدتها إلا ما أصابه من الهدم والإضافة ، عند سقوط قرطبة فى أيدى الأسبان ، وإقامة كنيسة فى وسط بيت الصلاة ، لما رآها الإمبراطور شارلكان ، حزن وغضب وقال للكهنة : « أقتم هنا ما يرى الناس مثله فى كل مكان ، وهدمتم ما لا نظير له فى العالم » .

تعددت المساجد فى الأندلس وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرأ عنه فى كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر فى مدينة الزهراء التى أقامها عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى والتى استغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاما ، وقد قدرت النفقة فيها بثلثمائة ألف دينار فى كل عام ، وجلب إليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، « وتضمنت العجيب من إتقان الصنعة ، ونخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، مابين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

أشاد المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة فى وصف بدائعها ، وقد كشف عن آثارها منذ أعوام ، وكتب أحد علماء الآثار فى أسبانيا : « إن الحفائر فى مدينةالزهراء تكشف لنا جديداً كل يوم ، فنزداد ثقة بصحة ماروواه المؤرخون».

وقد تجولت بين آثار هذه المدينــة مراراً ، وشاهدت موضع دورها وقصورها ، وبساتينها وجداولها وبركها ، وكثيراً مما تحدث عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين . وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وأنه لم يترك بها حائط إلا ألبس حلة المرمر المسنون ، أو ألواحا من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت بحيث تكوِّن وحـدها مجموعة شاملة للزخارف الإسلامية . وأول ما يسترعى النظر فيها تصويرها للأزهار والنباتات والثمار ، كأنما أرادوا أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة فى بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها فى دورهم ، فلا يفرغوا من التأمل فيها .

ويدلنا هذا على أن الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ؛ فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر ، وإدخال الروعة فى القلوب . وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ؛ فقد أثبتوا اتباع الناس خلفاءهم فى تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء . وكان الرحالة من المسلمين يضعون فى الصف الأول بين فضائل البـلاد التى وصفوها ، ما كانت تظهر عليه مبانيها من العظمة والفخامة ، وجمال التنسيق ، وحسن الهندسة . ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس ، وأطنبوا فى ذكر آثارها وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينهاسرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن مالم يبق منه إلا طُرَفٌ تؤويها المتاحف . وكان أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعنى ببنائه عناية تتضح من آثاره . ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ومن درجة الإتقان والدقة التى صنعت بها ، ومن الخفة البديعـة التى أفرغت فيها ، وقد أخذت يد الفنان تتلاعب فى الخطوط بحرية كبيرة ، وانصب الخيال عليها فجعل من الأقواس والخطوط شبكة ترتقى على الجدران كأنها أغصان وفروع ، تتناثر منها الأوراق والأزهار . ورُبط الخيال بالحقيقة ، إذ فرغ الزخارف بالتخريم ، فأنفذ إليها الهواء ، فكأنها أغصان تهتز وتتحرك ، بخفة وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة إلى قصر الحمراء فى غرناطة ، تجلى لنا الإبداع بمظهر الثراء والفخامة . ويخيل إلى السائح أن هذا القصر صفوة ما أخرجته العمارة الإسلامية فى الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس مما كان يدور فى هذا القصر من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلاطين . أقيم فى القرن الرابع عشر ، على عهد أسرة بنى الأحمر أو بنى نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعه بالرغم مما لحقه من التعديل فى العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا أينما حللنا به ، فإذا مررنا بقاعة السفراء ، أو انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف فى كل مكان حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار فى الأشجار ، تتساقط على العمد كأنها أغصان ، وترتقى العقود فى قاعة الخلافة ، فكأن الطير تسكنها ، وكأنها تغرد فى كل مكان . وقد شبهت هذه العقود « بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس فى الأفراح » . وما أحسب أن العمد فى العمارة ، كانت يوماما أبدع مما نراها عليه فى الأروقة المحيطة ببهو السباع ، ممشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يخيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود . ولعل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء . وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف الذى بويع صبيًّا ، ودام حكمه مايقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لأسرة بنى نصر ، بالرغم من الدسائس والثورات والحروب ، ونلقى صدى هذا الاستقرار فى قصر الحمراء . اشتق اسم هذا البهو من النافورة التى يحيط بها اثنا عشر تمثالا لسباع من الرخام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الإعجاب . وهذه النافورة أنموذج لما كانت تحويه قصور الأندلس ، وهى لاشك أقل فخامة من كثير غيرها . فقد كانت فى قصر الزهراء الذى تحدثنا عنه نافورة صغيرة منقوشة ومنحوت عليها ، «اثنا عشر تمثالامن الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى» . ويقول المؤرخون إن هذه التماثيل الذهبية « كانت صوراً لاثنى عشر حيواناً وطائراً مختلفاً وكان الماء يخرج من أفواهها » .

وجمال هذا البهو فى الأروقة المحيطة به ، والتى تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذى يجمع بين هذين الشكلين . وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ،

ومزدوجة تارة أخرى ، وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ، وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت عمداً صغيرة ، تنبث منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .

هذه الزخارف المتناهية رقة وإتقانا ، يزيدها جمالا تنوع ألوانها ، من أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض و ذهب وأسود . وبقصر الحمراء صور آدمية رسمت على القباب ، تمثل إحداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة من أساطير الحب . وليس للتصوير فى الإسلام نظير لهذه الصور .

وكذلك ليس لآثار العمارة فى الأندلس نظائر فى الفن الإسلامى ؛ إذ أنه كان لها طابع خاص . ولعل فيما قرأناه عن بعض هذه الآثار صورة لما كان يسجله هذا الطابع فى مدنية الأندلس ، من مجد وفخامة ، ورقة ورخاء .

أحمد فكرى